الخيرة النعمة المفقودة

نِعَمٌ للغافلين

من أضرِّ الأُمور على ابن آدم، أن لا يُحسن العبوديَّة لله جلَّ جلاله.

ومن سوء التوفيق عليه، أن لا يتشرَّف بنعمة الشكر، ثمَّ الشكر، ثمَّ الشكر في كل ساعة وآن، على نِعمٍ لم تنقطع في ساعةٍ ولا آن.

فالنِّعم تتنزَّل علينا وتتنزَّل بلا امتناع ولا انقطاع، ولا شُحٍ ولا قلَّة... نِعَمٌ لا تخبو ولا تنضب... نِعَمٌ لولاها:

ما أمسكتَ الوريقات الَّتي تُمسك بيديك الآن،

وما أبصرتَ بعينيك اللتين تُبْصر بهما الآن،

ولا قبضتُ أنا بدوري على القلم الَّذي أكتب به الآن...

نعيش في نِعم وعطايا ومواهب، فوقها، وتحتها وعن شمائلها وأيمانها، ومن حولها... نِعم وعطايا ومواهب، عصيَّة عن الإحاطة والحَصْر...

فسبحانك ما أحلمك وأكرمك تُبدءُ وتتفضَّل وتزيد...

ولا يمنعك عن ذلك، عبدُك الفقير الجاهل الَّذي خُلق بفضلك، واستمر بعطيَّتك... واغتر بتجاوزك وصفحك وعفوك...

فسبحانك ما أحلمك وأكرمك تُبدءُ بالإحسان كرماً...

نعمةٌ... وأيُّ نعمة!

ومن أفضال الله العظيمة علينا «الخيرة» الَّتي شرَّعها لنا تلطُّفاً وعناية، لاستقرار نحتاجه وسكينة نفتقدها.

«خَيْرة» نعمةٌ كرامةٌ موهبةٌ رأفة تلطُّفٌ عنايةٌ تفضُّلٌ توفيقٌ... سمِّها ما

شئت.

سمِّها...!

فهي ذلك، وكل ذلك، وفوق ذلك... ولا تُنْقص التسمية والتسميات، والوصف والأوصاف من الجوهر شيئاً.

فالاستخارة مَسْلكٌ لَصُوقٌ بنا، منذ عصور الإسلام الأُولى، منذ عصور البركة والخير والفطرة والصفاء، منذ عصور الأولياء والعلماء والحكماء... قبل عصر «التلوث الاغتراري» الَّذي نعيش، الذي أرجع البشرية إلى حُقبِ الجاهلية تحت عناوين «حضارية» أو ادِّعاءات «علمية»... أرجعها إلى دَرَكِ [النّـازعَات: 24] {أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى} !

هذا العصر الذي بلغت فيه الوقاحة المُسمَّاة «جرأة»... بلغت حداً أن أخذ البعض يستهزء بتلك النِّعمة «نعمة الخيرة»... تحت ذرائع مختلفة، تتستَّر «بالعقل» والمنطق!

زمنٌ تزيد فيه الخرافة والشعوذة و«السِّحر» في شرقٍ وغرب، وعند كبار القوم، حتَّى في الدول «الحضارية»... وتُرفضُ فيه الخيرة في بعض أوساطنا!!!

فيكفينا أنَّ في الخيرة خروجاً من الحول والقوَّة والفهم الذاتي إلى ما يختاره اللهتعالى له، فيعمل بمقتضاه.

أما ما اتَّضح حسنه وبانت منفعته، فلا تجري الاستخارة فيه، إلاَّ إذا كانت هناك أُمور غامضة أو غير واضحة أو يُخشى المستتر منها أو المفاجأة، فيلجأ للاستخارة ليختار الأصلح والأنفع.

وأمَّا سوء استخدام البعض فلا يضرّ بها في مواردها المشروعة.

حُبّاً بإخواني

لذا كان الدافع لكتابة هذه الكلمات، تنبيهاً لإخوتي والأخوات، إلى ما يدور حولهم من تشكيك وتسويلات، بشأن التوكُّل والاستخارات...

فيلجؤا إلى الباري، جلَّ شأنه العزيز، لقضاء الحوائج والمهمَّات، معتمدين عليه في كل شؤونهم، مع كل يقينهم بأنَّه الرؤوف الحنَّان الرَّحيم، الَّذي لم يُغْلق أبواب فيضه أمام عباده، ولم يجعل ذنوب العاصين مانعاً حائلاً دون لطفه وإحسانه.

فسبحانك ما أحلمك وأرأفك...

والحمد لله الَّذي لا يعلم خير عباده سواه،

والحمد لله الَّذي مَنْ استخاره هداه،

والحمد لله الَّذي مَنْ استشاره كفاه،

والحمد لله الَّذي مَنْ وقف على بابه أعطاه،

والحمد لله الَّذي مَنْ استجاره آواه... سبحانه هو الَّذي استجاب لعبده ولبَّاه...

فلبَّيكَ اللَّهمَّ لبَّيك...

بركات الاستخارة

و«الخيرة» والاستخارة فيما نحن فيه، هي طلب الخير والتسديد من الله تعالى، والرجوع إليه في أمرٍ نتردَّد فيه ونحتار، طالبين منه تعالى الصلاح والاختيار،

وهو سبحانه المتفضِّل الَّذي يجلُّ بجلاله، ولا يبخل بلطفه وامتنانه علينا لِما أمرنا بالسعي إليه، لصلاح دُنيانا وآخرتنا.

فعندما نَكِلُ الأُمور إليه، لا يمنع عنَّا ما فيه الصلاح، وهذا ما يُشير إليه العقل

والنَّقل.

ومن تمام الإيمان والعبوديَّة الحقَّة، تحويل إرادتنا إلى إرادته تعالى، مُتخلِّين عن مشيئتنا [الإنسـان: 30] {وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} راضين بما يرضى، نشاء ما يشاء (وما أنا وما خطري!) نختار ما يختار، ونُحب ما يُحب... مُتبرِّئين من أنفسنا إلى جانب قدسه، فهو الرَّبُّ الرَّحيم والحنَّان والمنَّان والغني والرَّحمن والعطوف والرؤوف والمدبِّر والكافي [الطّـلاَق: 3] {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} .

نلجأ إليه في كل عُسْر ويُسْر...

وهل هناك شرف فوق هذا الشرف؟!

رُوي في السَّند المتعدِّد عن مولانا الإمام جعفر الصَّادق أنَّه قال:

«إنَّ الله تعالى يقول: من شقاء عبدي أن يعمل الأعمال فلا يستخيرني» عن «المقنعة» للشيخ المفيد، و«فتح الأبواب» لسيِّدنا ابن طاووس. .

وفي الأسناد المعتبرة عنه ، قال:

مَنْ دخل في أمرٍ بغير استخارة ثم ابْتُلِي لم يُؤجر» فتح الأبواب. .

وعن مولانا الصَّادق أنَّه كان يقول:

ما أُبالي إذا استخرت الله على أيِّ طرفيَّ وقعت، وكان أبي يُعلِّمني الاستخارة كما يُعلِّمُني السُّور من القرآن» المصدر نفسه. .

عـلَّـة الخِيْرة بتصرف عن تفسير الميزان للطباطبائي، ج6، ص119.

وسرِّ الخيرة، لِمَنْ يريد تحليلاً أو تفسيراً، أنَّ الإنسان إذا أراد أن يُقْدم على أمر ما، تحرَّى المصلحة والعاقبة من وراء ذلك، بواسطة:

أ ـ الفكر: فيما قد يقع له من احتمالات ظاهرة، وهذ الفكر هو موهبة غرزها الله تعالى فيه.

وهي على كلِّ حال محدودة في أُفقها، ولا تمنع المفاجآت والتوقُّعات الأُخرى غير المنظورة.

ب ـ الاستشارة: مِمَّنْ له خبرة وتجربة وتتوفر فيه صفات الصدق وخلوص النِّيَّة في أداء النُّصْح.

ومع عدم الوصول إلى نتيجة يطمئن إليها في هاتين الواسطتين، وأخذت الحيرةُ منه مأخذاً، مع اختلاف درجاتها، توجَّه إلى بارئه تعالى بما شرَّع له من الخيرة لرفع الحيرة .

وليس في ذلك دعوى علم للغيب، ولا تعرض لشرك، ولا أي محذور ديني آخر.. وما الاستخارة إلاَّ إعانة على الفعل والترك من غير حكم تكليفي في وجوب أو تحريم، ولا كشف للغيب، ولا خوض في ما وراء الحُجُب من خيرٍ أو شرّ، ولا [المائدة: 3] {تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ} ولا [المَائدة: 90] {رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ} ... هو فقط: خروج عن الحيرة والتذبذب إلى الوضوح والحسم.

كل ذلك مع توقع ما قد يأتي، من فعل أو ترك، فربَّما كان فيه خير وربَّما كان فيه شر، تماماً كما لو أخذ «بخياره العقلي» أو المشورة لحسم تردده، فتبقى أيضاً كل الاحتمالات حاضرة، ولا يمتنع شيءٌ، لذا نرى في سائر أعمال الناس، ومع كل فرد منهم، عاقبة خير ونجاح وعاقبة شر وفشل، وليس خياراً

واحداً دائماً مستمراً... وإلاّ سوف يترتّب على ذلك تغيُّر النواميس الّتي جُعلت للبشر.

عَـتَـب!

وهنا علينا التنبُّه بل العتب مِمَّن يُحوِّل الطرق الشرعية لادِّعاء علم الغيب... وهؤلاء باتوا في مجتمعنا كثير، كما تكثر الاستفادة و«المتاجرة» بعناوين دينيَّة مختلفة!

فالبعض يُحوِّل الاستخارة لمعرفة الغيب تحت عنوان «التفاؤل» الَّذي هو ليس بمعنى الخيرة بل بمعنى الاطلاع على عواقب الأُمور!

نقل صاحب الوسائل قُدِّس سرُّه الشريف عن مولانا الصَّادق قال:

«لا تتفاءل بالقرآن».

ثمَّ علَّق قائلاً:

«الاستخارة طلب الخيرة ومعرفة الخير في ترجيح أحد الفعلين على الآخر ليعمل به، والتفاؤل معرفة عواقب الأُمور وأحوال غائب ونحو ذلك»

الوسائل ـ الحر العاملي ـ ج4، ص875. .

وأمَّا التفاؤل بحسب مفهومه العام بالتوكُّل على الله تعالى في كل الأحوال، فهو مطلوب من المسلم دوماً، لتطيب نفسه المتفرِّسة للسعادة دائماً في عين الله عزَّ وجلَّ.

وقد ورد من طرق الفريقين أنَّ النَّبي كان يتفاءل بالخير ويأمر به وينهى عن

أدب الخَيْرة

ومن أدب الخيرة بعد طلبها:

1 ـ الرضى بها مهما كانت نتائجها ، موافقةً للهوى أم مخالفة له، فلا يعترض بناءً على جهله.

روى البرقي في محاسنه الوسائل ـ الحرّ العاملي ـ ج5، ص598. بسند معتبر عن مولانا الصَّادق قوله:

«أبغض الخلق إلى الله، مَنْ يتَّهم الله».

قال الراوي: وأحدٌ يتَّهم الله؟

قال : «نعم، مَنْ استخار الله فجاءته الخيرة بما يكره، فسخط، فذلك يتَّهم الله!».

وكان يقول: «مَنْ استخار الله في أمره فعمل أحد الأمرين فعرض في قلبه شيءٌ فقد اتَّهم الله في قضائه» فتح الأبواب. .

2 ـ اليقين بأنَّ الخير فيما اختاره الله تعالى ، وإن جاء غير موافق لتوقُّعاته.

رُوي في السَّند الصحيح عن مولانا الصَّادق ، قال: «ما استخار الله عزَّ وجلَّ عبدٌ مؤمنٌ إلاَّ خار له...» المصدر نفسه. .

وعنه : «مَنْ استخار الله مرَّة واحدة وهو راض به، خار الله له حتماً» المصدر نفسه. .

الوصيَّة بالاستخارة

إنَّ إيصاء النَّاس باستخارة الله تعالى في أُمورهم، هو من أبواب الرشاد والاستدلال إلى الخير.

وهذا ما قام به صالحو هذه الأُمَّة من العلماء والأتقياء... قبل نِقْمة التجرؤ والتطاول الَّتي نعيشها اليوم.

فالإرشاد إلى الاستخارة وفضلها، هو من باب الإيصاء بالمعروف لكل حبيب وعزيز... فكيف نبخل به... ومَنْ فعل، فإنَّما يبخل على نفسه.

عن مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قوله: «لمَّا بعثني رسول الله إلى اليمن، قال لي وهو يوصيني: يا علي، ما حار مَنْ استخار، وما ندم مَنْ استشار» أمالي الشيخ الطوسي، ج1، ص135. .

ومن وصاياه لابنه الحسن: «وألْجِىءْ نَفْسَكَ في أُمُورِكَ كُلِّها إلَى إلهِكَ، فَإنَّك تُلجِئُهَا إلَى كَهْفٍ (الملجأ) حَرِيز (الحافظ)، ومانعٍ عزِيزٍ، وأخْلِصْ في المسألَةِ لِربِّكَ، فإنَّ بِيدِهِ العَطاءَ والحِرمانَ، و أكْثِرِ الاستخَارةَ » نهج البلاغة، الرسالة 31. .

لذا علينا أن:

نوصي بالاستخارة...

وندعو إليها...

ونعمل بها...

ونرضى...

مهما كانت النتائج... وإن كانت في ميزان البعض سلبية!

فالبعض يظن أنَّ نتائج الاستخارة لا بدَّ أن تكون كما خطَّط، أو كما توقَّع، أو كما يريد، أو كما يتمنَّى...

أو أنَّ الاستخارة فيها كل السرور والحبور، والربح ونيل المُنى وبلوغُ المأمول...

أمَّا الحق، وفي علم الله سبحانه بما فيه الصلاح، فربَّما تكون نتيجة الخيرة الجيدة:

حادث سيارة، أو ضرر جسدي، أو خسارة تجارية، أو طلاق...

ورُبَّما تكون نتيجة الخيرة «غير الجيدة»:

كثرة المال، وتيسير بيع، وذرِّيَّة، ويُسْر...

فنتائج الميزان قد لا تكون في الحسبان، فبعض أهل الإيمان قد لا يُصْلحه إلاَّ البلاء، والبعض الآخر لا يُصلحه إلاَّ عطايا الواهب المنَّان.

والعُمْدة في ما نحن فيه:

أن لا نكون أقدَمْنا أو أحْجَمنا إلاَّ بخيرة نُثاب على عواقبها وقد لا نعلم سرَّها إلاَّ بعد حين.

ومهما كانت الظروف، فهي عند مَنْ يُعين الملهوف.

«ومَنْ دخل في أمرٍ بغير استخارة ثم ابْتُلِي لم يُؤجر» الوسائل ـ الحر العاملي ـ ج5، ص217. .

فمن بركات الخيرة أنَّنا، وبفضل الله تعالى، نقوم بالعمل باطمئنان وسكينة أياً كانت العواقب.

فالحمد لله على نعمة الخيرة.

ومن دعاء مولانا الإمام زين العابدين في الاستخارة قوله:

اللَّهُمَّ إنِّي اسْتَخيرُكَ بِعِلْمِكَ، فَصلِّ عَلى مُحمَّدٍ وآلِهِ واقْضِ لِي بِالْخيْرَةِ وَألْهِمْنَا مَعْرِفَةَ الاخْتِيَارِ، وَاجْعَلْ ذَلِكَ ذَرِيعةً (وسيلة) إلى الرِّضَا بِمَا قَضَيْتَ لَنَا وَالتَّسْلِيمِ لِمَا حَكَمْتَ، فَأزِحْ عَنَّا رَيْبَ الارْتِيَابِ (الشك)، وَأيِّدْنَا بِيَقِينِ المُخْلِصِينَ، ولاَ تَسُمْنَا (لاَ تُكلِّفنا) عَجْزَ المَعْرِفَةِ عَمَّا تَخَيَّرْتَ، فَنَغْمِطَ (نستحقر) قَدْرَكَ، ونَكْرَهَ مَوْضِعَ رِضَاكَ، ونَجْنَحَ إلَى الَّتِي هِيَ أبْعَدُ مِنْ حُسْنِ العَاقِبَةِ وَأقْرَبُ إلَى ضِدِّ العَافِيَةِ.

حَبِّبْ إلَيْنَا مَا نَكْرَهُ مِنْ قَضَائِكَ وَسَهِّلْ عَلَيْنَا مَا نَسْتَصْعِبُ مِنْ حُكْمِكَ، وألْهِمْنَا الانْقِيَادَ لِمَا أوْرَدْتَ عَلَيْنَا مِنْ مَشِيَّتِكَ حتَّى لاَ نُحِبَّ تَأخِيرَ مَا عَجَّلْتَ، وَلاَ تَعْجِيلَ مَا أخَّرْتَ، وَلاَ نَكْرَهَ مَا أحْبَبْتَ، وَلاَ نَتَخَيَّرَ مَا كَرِهْتَ... وَأنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

فنصيحتي لك يا حبيبي ونور عيني، أن لا تُهمل الاستخارة، وهي النِّعمة الجليلة، لا تُهملها في كل حيرة لم تصل فيها إلى قرار...

لا تتهكَّم بها ...

وسلِّم لها...

فالخيرة خَيْرٌ على كل حال .